ليبرالية اليمين ضد التأسلم

ونلاحظ أن الشيخ على عبد الرازق لم تهبط عليه الليبرالية فجأة ولم يكن كتابه وليداً لفكرة طارئة وإنما هو ومنذ نشأته الأولى كان واحداً من مؤسسى تيار ليبرالى تبلور فى إطار مجموعة من الشبان المستنيرين قبيل ثورة ١٩١٩ وما بعدها فقد كان على عبد الرازق وشقيقة مصطفى عضوان فى مجموعة ليبرالية تضم د. محمد حسين هيكل ومحمود عزمى وعزيز ميرهم و د.منصور فهمى وغيرهم وكان الأب الروحى لهذه المجموعة أحمد لطفى السيد. ولكى نطل على بعض أفكار هذه المجموعة نستمع الى شفيق غربال وهو ينعى هيكل "تحدث محمد حسين هيكل عن زيارته لباريس هناك فقال ومرت الأيام وأنا أرى فى مدينة النور ألواناً من الحياة تفسح أمام النظر أفق التفكير وتزيد الإنسان إيماناً بحرية العقيدة

والرأى، وبأن التعصب ذميم وأن أول واجب للإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة" ويمضى د. غربال "لقد ترجم هيكل أجزاءً من كتاب روسو وأهداها "إلى مصر الحرة، إلى القلوب الخفاقة بمعانى الحرية والعدالة والإخاء" [مجلة اللغة العربية - (مجموعة ١٩٦٢) - كلمة شفيق غربال فى تأبين الدكتور محمد حسين هيكل - صـ٢١٢ وما بعدها]. كما أصدر شقيقه الشيخ مصطفى مجلة "السفور" لتدعو الى التحرر فى فهم الدين. [لمزيد من التفاصيل حول دور هذه المجموعة راجع: د.رفعت السعيد - عمائم ليبرالية [٢٠٠٢] صـ١١١ وما بعدها]. هذا هو الرجل والكتاب فماذا عن التداعيات. يتحدث محمد أركون عن الكتاب قائلاً أنه "كان يمثل موقفاً راديكاليا، أبعد من أن يكون بحثاً عن نصوص دينية تحرم الكهنوت والاستبداد، كما فعل من سبقوه كما أنه أعمق وأبعد من مجرد محاولة التوفيق بين نصوص الشريعة ومبادئ الحضارة الغربية، بل هو أول دراسة للحقيقة الدينية وارتباطها بشرعية السلطة السياسية، كما أنه أول نقد يظهر التضامن التاريخى بين الفكر الثيولوجى ومجموعة البنى السياسية والسلطوية التى استخدمت الأديان فى بناء كل الإمبراطوريات" [مجلة تحولات - العدد الرابع - [١٩٩١] مقال لمحمد أركون بعنوان فك الارتباط ما بين اللاهوت والسلطة] ولعل هذه الفكرة الجوهرية هى التى أثارت الضجيج الزلزالى الصدى فى المجتمع المصرى والعربى والاسلامى فى هذه الفترة. فإذ تعرض الشيخ لهجوم من أنصار الخلافة تحركت

شخصيات وقوى ليبرالية للدفاع عنه فأصبحت القضية كما يقولون في أيامنا قضية رأى عام.. ونقرأ في مجلة "الهلال" "أن كل أمة إسلامية حرة لها إنتخاب من تريده حاكماً عليها، وسواء كان الأستاذ على عبد الرازق قد وفق في أن يستند في نظريته إلى الدين - كما يعتقد - أو لم يوفق فإن هذه النظرية تتفق وأصول الحكم في القرن العشرين الذى يجعل السيادة للأمة دون سواها من الأفراد مهما كانت ولادتهم وميزاتهم الأخرى". [الهلال - يوليو ١٩٢٥] ويكتب سلامة موسى "لعلى عبد الرازق الحق في أن يكون حراً يرتيئ ما يشاء من الآراء دون أن يقيد بأى قيد سوى الإخلاص" [الهلال - أكتوبر ١٩٢٥] وتكتب مجلة المقتطف "إننا نعتقد أن كل ما قاله حضرة القاضى على عبد الرازق وأمثاله قرين الصواب، وخال من الخطأ، وكذلك فإن قيام بعض المفكرين ووقوفهم موقف الانتقاد والشك يشحن الهمم ويغرى بالبحث والتنقيب" [المقتطف. أغسطس ١٩٢٥] ويجب أن نضع كل هذه الكتابات في إطار وضع شائك فقد تكاثرت على نطاق مصر والبلاد العربية في ظل الدعوة لمؤتمر الخلافة التى روجها بعض الأزهريين لحساب فؤاد وهو المؤتمر الذى انتهى إلى الفشل في إطار هذا الضجيج وتحديداً في مايو ١٩٢٦.

لكن ما يستحق التوقف والدراسة المتأنية هو أن أشد لطمه وجهت إلى الكاتب والكتاب جاءت من سعد زغلول الزعيم ذو المهابة ورئيس الحزب الذى يفترض البعض أنه كان على الدوام حزب

الليبرالية المصرية.. ويكتب سعد زغلول "قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت من طعن منهم فى الإسلام بحدة كهذه الحدة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق.. فعرفت أنه جاهل بقواعد دينه بل لبسيط من نظريته" [راجع لمزيد من المعلومات حول موقف سعد زغلول ضد الكتاب [د. غالى شكرى - النهضة والسقوط فى الفكر العربى الحديث - صـ٢٤٤ وما بعدها] كما أسرع الشيخ محمد نجيب المطعنى بإصدار كتاب يناقض به كتاب الإسلام وأصول الحكم ويقول فيه أن الشيخ على عبد الرازق أراد به أن يعطل الأداة التى بها يمكن إحداث التغيير والتطور فى الإسلام، كما أنه يقضى فى آخر الأمر إلى إنكار الشريعة ذاتها" [محمد محمد حسين - المرجع السابق صـ٨٥] وتتعالى نبره التهديد والتحريض فيكتب رشيد رضا "لا يجوز لمشيخة الأزهر أن تسكت عنه لئلا يقول هو وأنصاره أن سكوتهم عنه إجازة له أو عجز عن الرد عليه" [المنار - ٢١يونيو١٩٢٥ - مجلد ٢٦ - صـ١٠٤].
وينتفض الشيخ الخضر حسين ليصدر كتاباً بعنوان "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" ثم يهديه بكتابة تحريضية إلى "خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر الأعظم برجاء التفضل بالقبول" ثم "والصلاة والسلام على النبى وآله وكل من حرس شريعته بالحجة والحسام" كما أصدر الشيخ الطاهر عاشور كتاباً بعنوان "نقد علمى لكتاب الإسلام وأصول الحكم" [١٣٤٤هـ].
وقبل أن نتحول إلى ردود الفعل الرسمية وتداعياتها يتعين أن

نتوقف عند مفارقة ظلت تمثل لغزاً استوجب تحليلات عديدة. فالحزب الذى ساند أحد مؤسسيه وهو الشيخ على عبد الرازق هو حزب الأحرار الدستوريين الذى جرى تصنيفه على الدوام على أنه المدافع والممثل لمصالح كبار الملاك العقاريين، وهو الحزب الذى كان منذ بدايته الأولى وعلى يدى أحمد لطفى السيد [حزب الأمة] يرفض أى فعل فاعل ضد الاحتلال منذ مطالع القرن مطالباً بأن تبدأ مصر رحلة الاستقلال عبر مسيرة طويلة وممتدة تستهدف نشر الأخلاق والنهوض بالأسرة، ثم تصادم فى شكله الجديد [الأحرار الدستوريين] مع سعد زغلول وإنحاز الى الملك فؤاد وحاول قدر استطاعته أن يلجأ إلى أيه تسوية مع الاحتلال.. هذا الحزب ساند الكتاب والكاتب متخذاً موقفاً ليبرالياً شجاعاً بينما سعد زغلول يقف ضده.

وهذه الظاهرة ظلت على الدوام معلقة أمام المؤرخين والسياسيين الى أن تولى محمد محمود باشا رئاسة الحزب فإنهال بقبضة قوية على كل مقولات الديمقراطية بحيث تناقض تماماً مع أفكار ومقولات مؤسسية. ولكن الأمر لم يزل بحاجة الى دراسة أكثر تدقيقاً لفهم حقيقة هذا التناقض.

ولم يزل زلزال الإسلام وأصول الحكم قادراً على التحرك.

ولم تمض حملة التحريض ضد كتاب الإسلام وأصول الحكم بلا أثر. ولم يكن غضب فؤاد على الكاتب الذى أفسد عليه حلم الترشح للخلافة بلا نتيجة فقد اجتمعت هيئة كبار العلماء بالأزهر

برئاسة الشيخ محمد أبو الفضل شيخ الأزهر وبحضور ٢٤ عضواً واستدعت الشيخ على وحاكمته باعتبار أنه حاصل على شهادة العالمية من الأزهر وأنه قاض شرعى. وتحدث الشيخ إمام الهيئة المتربصة به وحاول جهد طاقته أن يدافع عن نفسه دون جدوى فقد كان الأمر مرتباً ومدبراً وبعد ساعتين من جدل أصدرت المحكمة حكمها وجاء فيه "إجتمعت هيئة كبار العلماء فى ١٢ أغسطس ١٩٢٥ وقررت نزع شهادة العالمية من الشيخ على عبد الرازق، ومحو أسمه من سجلات الجامع الأزهر، وطرده من كل وظيفة لعدم أهليته للقيام بأيه وظيفة دينية أو غير دينية" وبطبيعة الحال فإن شيخ الأزهر أسرع ليزف البشرى إلى الملك فؤاد فأبرق له "شاكراً له غيرته على الدين من عبث العابثين وإلحاد الملحدين وحفظ كرامة العلم والعلماء" [محمد رجب البيومى - الأزهر بين السياسة وحرية الفكر - (١٩٨٣) - صـ١١٥]. وتأمل الناس صيغة البرقية واكتشفوا إنها تكاد أن تقول أن الملك هو الذى أخذ القرار بسبب غيرته على الدين. ثم تتداعى الأحداث. أرسل شيخ الأزهر القرار إلى عبد العزيز فهمى وزير العدل لتوقيعه وإصداره بعد التصديق عليه. لكن عبد العزيز فهمى باشا وكان من أركان الأحرار الدستوريين رفض التوقيع، ورفض إصدار القرار، وكتب فى مذكراته قائلاً "استحضرت هذا الكتاب وقرأته مرة وأخرى فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤخذ عليها مؤلفه، بل على العكس وجدته يشيد بالإسلام ونبى الإسلام، ويقدس النبى تقديساً تاماً. ويشير إلى أن النبوة هى

وحى من عند الله، والوحى لا خلافه فيه. وثقل على ذمتى أن أنفذ هذا الحكم الذى هو ذاته باطل لصدوره من هيئة غير مختصة بالقضاء .وفى جريمة الخطأ فى الرأى من عالم مسلم يشيد بالإسلام، وكل ما فى الأمر أن من يتهمونه يتأولون فى أقواله، ويولدون منها تهماً ما أنزل الله بها من سلطان" [عبد العزيز فهمى باشا - حياتى - صـ١٥٤] وغضب الملك ووقع زلزال وزارى وانتهى الأمر بأن استقال عبد العزيز فهمى باشا واستقال معه تضامناً ومساندا للشيخ على عبد الرازق ثلاثة وزراء آخرين هم محمد على علوبة وتوفيق دوس وإسماعيل صدقى. وهنا نتوقف مرة أخرى لنتأمل الصورة المرتبكة فإسماعيل صدقى الذى استقال من الوزارة دفاعاً عن حرية الرأى والمواقف الليبرالية لشيخ أزهرى هو ذاته الذى رأس الوزارة فى عام ١٩٣٠ وألغى الدستور وأصدر بديلاً عنه دستوراً مرفوضاً من الجماهير.. ومارس كل أشكال التعسف والقهر سواء فى وزارته الأولى (١٩٣٠) أو وزارته الثانية (١٩٤٦) واسمى وبجدارة الطاغية صدقى.

ولكن "كتاب الإسلام وأصول الحكم" وكاتبه يأبيان إلا الانتصار بأيدى ذات الذين أدانوه. فالزمان يدور وفى عام ١٩٤٧ أى بعد اثنان وعشرين عاماً، كان حزب الأحرار الدستوريين شريكاً قوياً فى الحكومة وكانت ثمة رغبة ملكية فى إرضاء هذا الحزب الذى يسانده بلا تردد، وفوجئ الجميع باجتماع هيئة كبار العلماء ومعها أعضاء المجلس الأعلى للأزهر فى ٢٥ فبراير ١٩٤٧ وأصدروا قراراً بإلغاء

القرار الصادر فى عام ١٩٢٥ وبإعادة شهادة العالمية للشيخ على وعودته الى زمرة العلماء من جديد. لكن المشايخ المجتمعين على عجل اكتشفوا صعوبة إنفاذ القرار، فاللائحة تحتم أن يكون إلغاء القرار بأغلبية ثلثى موقعيه. والموقعين غالبيتهم توفوا ولم يبق سوى القليل.. فتقدم المجتمعون بإلتماس إلى "جلالة الملك فاروق الأول المعظم" يقولون فيه "إن المجتمعين من أعضاء هيئة كبار العلماء وأعضاء المجلس الأعلى للأزهر وشيوخ الكليات الأزهرية يلتمسون من جلالة الملك وفضله على الأزهر غزير أن يتفضل فيضيف مكرمة إلى مكارمه الحميدة والعديدة فيعفوا عن الأثر المترتب على الحكم الذى أصدرته جماعة كبار العلماء من أكثر من عشرين عاماً" [للتفاصيل راجع - د. رفعت السعيد - الإرهاب إسلام أم تأسلم] واستجاب الملك لهذا الالتماس ثم ما لبث أن أصدر مرسوماً ملكياً فى ٢ مارس ١٩٤٧ بتعيين الشيخ على عبد الرازق وزيراً للأوقاف. ثم مرسوماً آخر بتعيينه أميراً لبعثة الحج المصرية.

والمثير للدهشة أن أحد الكتاب المنغمسين فى وعاء التأسلم قد روج ولم يزل أن الشيخ على عبد الرازق قد ندم على إصداره هذا الكتاب وأنه قرر عدم السماح بنشرة أخرى وقال أن هذا الندم قد أتاه فور صدور الكتاب واحتدام المعركة حوله وأنه تاب عن الخوض فى أبحاث من هذا القبيل. لكننا ومع مواصلة البحث نكتشف أن الشيخ قد واصل معركته وبشجاعة أكثر ووضوح أوضح ففى أغسطس ١٩٢٥ أدلى الشيخ بحديث رائع دافع فيه عن موقفه

وهاجم خصومه بشدة لجريدة انجليزية وتأكيداً منه على تحديه.. أعاد نشر الحديث مترجماً فى جريدة السياسة [السياسة - ٢٤ أغسطس ١٩٢٥].

ثم يفاجئنا الشيخ على فى عام ١٩٢٨ بتعليق مطول على كتاب "السفور والحجاب للآنسة نظيرة زين الدين" يقول فيه "ولأنى أحسب مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظرى فى مسألة السفور والحجاب الى طور العمل والتنفيذ. فلست أجد بين المصريين - إلا المخالفين منهم - من يتساءل عن السفور وهل هو من الدين أم لا ؟ ومن العقل أم لا ؟ بل تجدهم وحتى الرجعيين منهم يؤمنون أن السفور دين وعقل وضرورة لامناص منها لحياة المدنية الحاضرة" ويوجه الشيخ تحية للمؤلفة "فهى شابه فتية تنهض بالدعوة إلى ما تعتبره صواباً، وإن خالفت فى ذلك رأى بعض الشيوخ الحاليين والمتقدمين، فى حين أن خوف البعض من إعلان آرائهم الحرة أن خالفت رأى الجموع يدمغهم بأنهم ليسوا بأنفع للبشرية من أهل البلد الذين لا يميزون بين خير وشر، وربما كان أولئك فى سكوتهم عما يعرفون، وفى إعراضهم عما انكشف لهم من الحق أحط درجة من الحمقى والمغفلين، فالذى ينقصنا هو الشجاعة فى الرأى وقول الحق من غير تردد ولارياء فهنا مبدأ الكمال الانسانى، وهنا تختلف أقدار الرجال مصلح أو مفسد وشجاع أو جبان" [الهلال - أغسطس ١٩٢٨ - مقال الشيخ على عبد الرازق - صـ ١١٨].

ولم تكن المعركة حول كتاب "الإسلام وأصول الحكم" سوى

بداية لمعركة استمرت طويلاً.. بين التيارين السلفى بزعامة الشيخ رشيد رضا الذى تخلى تماماً عن تعاليم أستاذه محمد عبده وجعل من الخلافة ورفض الفكر الليبرالى معركته الرئيسية ثم سانده بعد قليل الأستاذ حسن البنا قبيل تأسيسه لجماعة الإخوان وبين قوى ليبرالية عديدة وتحول الأمر إلى صدام ضار على صفحات الصحف.

وتنشر الأهرام تصريحاً أدلى به مصطفى النحاس باشا عندما أصبح رئيساً لمجلس الوزراء لوكالة الأناضول التلغرافية قال فيه "إننى معجب وبلا تحفظ بكمال أتاتورك الذى صاغ بعبقرية تركيا الحديثة. ولست أعجب فحسب بعبقريته العسكرية، بل أعجب أيضاً بعبقريته الخالصة وتفهمه لمعنى الدولة الحديثة التى تستطيع وحدها فى الحالة العالمية الحاضرة أن تعيش وتنمو" ويرد عليه الأستاذ حسن البنا قائلاً "فدولتكم أكبر زعيم شرقى عرف الجميع فيه سلامة الدين وصدق اليقين، وموقف الحكومة التركية من الإسلام وأحكامه وتعاليمه وشرائعه معروف فى العالم أجمع، فالحكومة التركية قلبت نظام الخلافة إلى الجمهورية. ثم هل يفهم من ذلك أن دولة النحاس باشا وهو الزعيم المسلم الرشيد يوافق على أن يكون لأمته برنامج كالبرنامج الكمالى، يتولى كل الأوضاع فيها ويفصلها عن الشرق والشرقيين ويسقط من يدها لواء الزعامة ؟ وإنا لنعيذ دولة الرئيس من هذا المقصد الذى نعتقد أنه أبعد الناس عنه".. وكان هناك أيضاً طه حسين الذى فجر كتابه "فى الشعر الجاهلى" أزمة عارمة ثم خاض معارك ليبرالية أثارت كثيراً من الاهتمام وكثيراً من الهجوم. فقد دعا

السياسيين ورجال الدين إلى "رفع رايات العلم الحديث على أيدى قيادات من العلماء الذين يمكنهم أن يلائموا بين مستحدثات العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور، وهم يمكنون للحكم الصالح المنتج الذى يحقق العدل ويكفل رقى الشعب ويتيح له أن يتقدم إلى الأمام بما يتطلب إشراف الدولة المدنية على التعليم، أى عزله عن رجال الدين ونفوذ الأجانب" وطالب "بالحرية الكاملة والمطلقة للتعليم الجامعى حفاظاً على حرية البحث العلمى والاكاديمى، وعلى الأزهريين أن يقوموا بتدريس الدين الصحيح كدين للحرية والتقدم، وأن يلقن الطالب الأزهرى المعنى الصحيح للوطنية الإقليمية وليس ما يقال أنه الرابطة القومية الدينية" ثم أشهر طه حسين سيف الشك الديكارتى فى كل المقولات مؤكداً "يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل شخصياتها وأن ننسى عواطفنا الدينية وما يتصل بها. وأن ننسى ما يقال عن هذه العواطف القومية والدينية، وألا نقبل شيئاً مما قاله القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت" [محمد كامل ضاهر - المرجع السابق] وكان طبيعياً أن تأتيه ردود عديدة عنيفة ترفضه وترفض ديكارت بل وترفض ما أسمته التغريب باعتباره مؤامرة على الإسلام وعلى هوية الأمة. وكان هناك أيضاً إسماعيل مظهر الذى كتب كثيراً عن النمط العلمى فى التفكير فقال "إن اهتمام المفكرين العرب والمسلمين بالموضوعات المثالية المجردة بدلاً من الاهتمام بقضايا الحياة الواقعية، قد جعل النمط الغيبى لا الموضوعى

هو السائد فى تفكيرهم الماضى والحاضر، وإننى أتوقع وعسى أن يكون ذلك قريباً أن الخطوة التى خطوناها فى سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبى إلى وضح الأسلوب اليقينى سوف تقودنا سعياً إلى ميدان يتصادم فيه اليقينى مع الغيبى تصادماً يثير فى جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الأسلوب الغيبى وقد تحطمت جوانبه واندكت قوائمه، وتترك الأسلوب اليقينى قائماً بهامة الجبار، القوى الأصلاب، مشرفاً على الشرق، وقد هب من رقاد القرون الوسطى ليسير فى الدروب التى سهلت سبله للأنام نواميس النشوء والارتقاء" [المقتطف - المجلد ٦٨ (١٩٢٦) مقال لإسماعيل مظهر بعنوان النمط فى التفكير- صـ١٣٧] ويكتب إسماعيل مظهر فى مجلته العصور قائلاً "لقد جاهد الناس تحت تأثير فكر الحرية فى سبيل الفصل بين الدين والسياسة متخيلين أن الفصل بينهما فى الاعتبار كاف للفصل بينهما فى الواقع، ولقد هبت حول هذه المسألة عاصفة الجدل، وقامت قيامة الكلام. ولكن هل تخلص الدين من مؤثرات العقل المنحرف تحت وهم القيام بالواجب والمسئولية إزاء المعتقد الثابت ؟ لم يكن شيئاً من هذا، فإننا لا نزال نرى فى عصرنا الديمقراطى أن الدين تحت تأثير زعمائه قد عبر جسر الذاتية البشرية إلى موضوعات السياسة العملية، فاختلطت منافع الذوات بأوجه المنافع العلمية العامة اختلاطاً أفسد الديمقراطية وجعلها أبعد الأشياء عن الحرية الصحيحة" [العصور- العدد الأول - سبتمبر ١٩٢٧ - الافتتاحية - صـ٧].

وطبعاً تعرض إسماعيل مظهر ومجلته العصور إلى هجوم عنيف.. دفعه فيما بعد إلى تراجع عن كثير من هذه الآراء. ويمكن القول أن هذه المعارك قد امتدت بين الصفوة بسبب تعقيدات الكتابة التى ربما كانت متعمدة، لكن معارك أخرى اتخذت منحنى أكثر بساطة ووضوحاً وكانت أشد قسوة.

وإذا كان الحوار حول كمال أتاتورك وموضوع الخلافة قد أتى مهذباً بين النحاس باشا وحسن البنا بسبب المكانة الرفيعة للنحاس باشا، فإن الحوارات الأخرى التى تناثرت حول هذا الموضوع لم تكن كذلك. خاصة ذلك الحوار أو بالدقة الشجار بين سلامة موسى والشيخ رشيد رضا. فسلامة موسى يكتب فى "المجلة الجديدة" قائلاً "إن من يتأمل أحوالنا الآن فى مصر والشرق العربى يجد فئتين تتغالبان الزعامة فى الرأى، أحدهما سلفية تقول بإتباع السلف الصالح وتنسب إليه أفضل الخصال وتلتزم بالتقاليد المأثورة، والأخرى فئة المجددين الذين يقولون بالتطور حين يعتدلون، أو بالثورة حين يغالون. ومن الغلو أن ينسب السلفيون حميد الخصال الى السلف دون الخلف لأن الإنسانية تتدرج فى الرقى، ولو كان السلف أصلح منا لوجب أن نبقى ملازمين لتلك الحضارة البدائية، ويجب أن تكون لنا تقاليد تشبه الوراثة فى صون كيان الأمة وتجديد يشبه التطور فى العمل للرقى" [المجلة الجديدة - العدد الثانى - ديسمبر ١٩٢٩ - مقال لسلامة موسى بعنوان: السلفيون والمجددون - صـ١٤٥] وفى عدد آخر فى المجلة الجديدة يكتب سلامة

موسى "إن الحضارة كتلة متماسكة فلا يمكننا أن نأخذ بعضها ونترك البعض الآخر، مثال ذلك أننا لا يمكننا أن ننشر الصناعة بيننا وننتقل من الطور الزراعى الى الطور الصناعى دون أن نعطى المرأة حريتها لأن هذه الحرية التى اكتسبتها المرأة فى أوربا هى ثمرة النظام الصناعى الذى يعيش فيه الأوربيون" [المجلة الجديدة- العدد الثالث - يناير ١٩٣٠ - صـ٣٨٠] ورغم هذه الكلماتالرصينة والخالية من أى تهجم فإن الشيخ رشيد رضا قد تجاوز كل الحدود فى هجوم ساحق على صفحات المنار، إتهم فيه سلامة موسى بأنه يتخذ هذا الموقف لأنه مجرد نصرانى وكافر ملحد. وتشتعل المعركة فيرد سلامة موسى قائلاً "يعيش الشيخ رشيد رضا وهو يسب المجددين المصريين ويتهم بالكفر مخالفيه، وهو يتمرغ الآن فى الضياع والعقارات التى جمعها بالنعرة الدينية، وقد يتساءل الإنسان هل هذه غيرة للدين أم غيرة للعيش" ويمضى سلامة موسى مهاجماً محيى الدين الخطيب الذى شارك هو أيضاً فى الهجوم عليه فيقول "أنه شاب ليس فيه خبث الشيخ رشيد وللشباب سذاجته، ولكنه يسير فى خطة عوجاء لا بد أنها ستنتهى به إلى أشر مما انتهى إليه الشيخ رشيد، وهو يصدر مجلتين يستخدمهما فى الطعن فى كل من طه حسين وعلى عبد الرازق وأمثالهما من شباب مصر الراقى، ويدأب أسبوعياً على ذلك حتى ليظن القارئ أنه ينوى بهما شراً عظيماً أو يريد منا أن نطردهما من وطنهما مصر" [المجلة الجديدة - العدد الرابع - فبراير ١٩٣٠- صـ٤٢٢] ويرد رشيد رضا فى قسوة

ويستخدم ذات الألفاظ نصرانى - كافر - ملحد، فياتى سلامة موسى بشتائم ربما كانت جديدة على قاموس الحوارات الصحفية وبالذات هذه الموضوعات فيقول: هذا الرجل رغم أنه موظف فى الحكومة المصرية الآن ليس فى دمه قطرة من الدم المصرى [والمعلوم أن رشيد رضا شامى الاصل]، وهو اخصائى فى السب والشتائم يميناً ويساراً بلا حساب، وبسلاطة يحسبها بلاغة، فيقول عن العقاد أنه كاتب مراحيضى وعن طه حسين أنه جاهل، وله غارات على شخص المحرر لهذه الكتابة فهو فى نظرة كافر وشيوعى ونصرانى مدسوس على الإسلام وإباحى.. إلخ. أما عن الكفر فإنى أدلهم على إيمانى فهو إيمان الدكتور هيكل ومحمود عزمى وعزيز ميرهم، بل أنه أيمان معظم الشباب المصريين الذين درسوا شيئاً من العلوم العصرية، ولا يمكن أن يسمى أى منهم كافراً، إذ أن لكل منهم صوفيته الدينية أو الفلسفية أو الأدبية،وأما أنى نصرانى مدسوس على الإسلام فالرد عليه سهل وهو أن الإسلام دين بلادى، وواجبى أن أدافع عنه أمام الاجنبى وهذا ما فعلته فى كل الظروف. ففى عام ١٩٢٠ كتب السير هاردى جونسون مقالاً فى مجلة نيو ستيتسمان يهاجم فيه الإسلام ويطالب بإلغاء الأزهر فرددت عليه رداً مفحماً قلت فيه: مع أنى قبطى أعيش بين مسلمين لا أجد أن الإسلام يؤذى غيرة، بل هو يعمل للتسامح والرخاء. وفى العام الماضى اقترحت الاحتفال بمرور ألف عام على تأسيس الأزهر، وأهمس إليه والى أمثاله بأن الجمهور فى مصر قد إرتقى، وأن الطن

فى آذانه بأن هذا أو ذاك من الكتاب كافر أو عدو للإسلام أو إباحى إنما يعده الجمهور هذراً سخيفاً" [المجلة الجديدة - العدد الرابع] لكن الشيخ رشيد رضا لا يسكت ويصدر كتاباً ضد سلامة موسى مليئاً بالشتائم والاتهامات. وصدر الكتاب بلا اسم للمؤلف ويعلن سلامة موسى قائلاً "وسألت عن كاتبة فى إدارة المطبوعات فعرفت انه إبن أخ رشيد رضا الصحفى المعروف الذى وفد على بلادنا كما تفد الطواعين وخص نفسه بشتم الشبان المصريين واتهامهم بالإلحاد والشيوعية وهكذا بحيث تحتاج إلى إن تغسل عقب قراءة هذا الكتاب" [المجلة الجديدة - عدد يوليو ١٩٣٠]. والآن آن لنا أن نتوقف أمام ملاحظتين هامتين الأولى عن علاقة حسن البنا وجماعة الإخوان برشيد رضا قائد حملة التكفير والاستخدام الطائش للتأسلم السياسى وهنا نتوقف أمام مقولة شهيرة لحسن البنا يحدد فيها ملامح جماعة الإخوان عند نشأتها إذ يقول "نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا".. ولأن الجماعة كلها تعتبر نفسها من أتباع الرجل الأكثر تطرفاً فى تكفير الليبراليين وكل الخصوم، فإن حسن البنا يؤكد فى "مذكرات الدعوة والداعية" أن مجلة المنار وهى لسان حال رشيد رضا والتى استخدمها فى ترويج فكرة "قد قدمت أجل الخدمات للإسلام فى مصر وغيرها من البلدان" [حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية] بل أن أحد المتخصصين فى تاريخ الجماعة أكد "أن البنا كان يتباهى بأن الشيخ رشيد رضا كان على وشك الانضمام للجماعة قبيل وفاته"

[Nadav Safran - Egypt in Search of Political Com-
munity -(1961)-P. 291]

أما الملاحظة الثانية وهى بالغة الأهمية فهى أن هذه الهجمات التكفيرية ضد رموز الفكر الليبرالى والتقدمى قد دفعت الكثيرين للتراجع عديداً من الخطوات إلى الوراء.

والحقيقة أن الخلاف المحتدم والشرس بين التأسلم وبين القوى الليبرالية والذى استخدمت فيه أسلحة التكفير ينبع من خلاف جوهرى فى مبدأ النظر للدين الاسلامى "فالبعض الذى يعتقد أن الإسلام عقيدة سماوية وهو فى ذات الوقت محتوى سياسى يقيم مجتمعا إسلامياً يشكل بذاته كومنولث اسلامى أى وحدة من الشعوب المسلمة، هذا البعض يرى أن ذلك يؤدى بالضرورة الى أن تكون الأمة الإسلامية تكوين سياسى موحد ومتكامل ومن ثم تمسكوا بفكرة الخلافة وباعتبار المخالفين مخالفين للإسلام ذاته".

[Von Grunebaum - Modern islam , The search for
Cultural identity-P. 65]

وكان هذا التيار يؤكد فى تشدد "إنه لا خلاص للعرب والمسلمين، ولا فرصة أمام الشرق كى يحترم نفسه ما لم يتخلص من كل معطيات الحضارة الغربية"

[The society of Muslim Brothers-. Mitchell. R
oxford-(1969)P. 99]

وعبر هذه النظرة المتأسلمة أصبح الصراع شديد الحدة وأصبح التكفير حتمياً، وفى مواجهة هذه الحملة العنيفة بدأ عديد من الليبراليين فى التراجع خاصة ذوى النزعة الارستقراطية التى لا يمكن أن تحتمل صراعاً كهذا، كذلك شعر ليبراليوا حزب الأحرار الدستوريين [أحمد لطفى السيد و د.محمد حسين هيكل.. وغيرهما] أن معركة كهذه تؤذى صورة الحزب السياسى فى مواجهة النفوذ الطاغى لحزب الوفد، وكان هناك أيضاً عدد من المثقفين الذين لم يحتملوا ثقل هذا التحدى فتراجعوا هم أيضاً بحثاً عن موقف وسط، وربما أصدر محمد حسن الزيات مجلته "الرسالة" للتبشير بهذا الموقف الوسط مؤكداً فى العدد الأول منها أنها ستكون "جامعة بين روح الشرق وحضارة الغرب". وكتب أحمد أمين فى عددها الأول أيضاً معبراً عن الحاجة الى نموذج اجتماعى تربوى متوازن ومتكامل يقدمه رجال الثقافة ليتجاوز الثنائية بين التغريب والسلفية ويجمع بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الأوربية ويقول "فى مصر حلقة مفقودة لا نكاد نشعر بوجودها فى البيئات العلمية مع إنها ركن من أقوى الأركان التى ينبغى أن نبنى نهضتنا عليها، تلك الحلقة هى أن طائفة من العلماء جمعوا بين الثقافة الدينية الإسلامية العميقة وبين الثقافة الأوربية العلمية، هؤلاء يعوزنا الكثير منهم ولا يتسنى لنا أن ننهض إلا بهم. فإن أكثر من عندنا قوم تثقفوا ثقافة عربية إسلامية بحتة، وهم جاهلون كل الجهل بما يجرى فى العصر الحديث من آراء ونظريات فى العلم والأدب

والفلسفة، وطائفة أخرى تثقفت ثقافة أجنبية بحتة، ويعرفون آخر ما وصلت إليه نظريات العلم فى الطبيعة والكيمياء والرياضيات لكنهم يجهلون الثقافة العربية الإسلامية كل الجهل، والفئة الأولى يمثلها خريجوا الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى، ويمثل الطائفة الثانية نوابغ المدارس العصرية والثقافات الأوربية" [الرسالة - يناير ١٩٣٣]. وقد سبق ذلك أن أصدر الدكتور هيكل ملحقاً لمجلة "السياسة" مكتسياً تماماً بطابع اسلامى مطالباً "بحضارة يمتزج فيها العلم بالإيمان فيرتوى منها العقل والنفس جميعاً، وتجد فيها الروح الإنسانية غذاءً يجمع لها بين الرخاء والسعادة، وبين النعمة والطمأنينية" [ملحق مجلة السياسة - ١٩٣٢]. ويواصل د. هيكل توضيح موقفه أو بالدقة تبرير موقفه فى كتابه "منزل الوحى" فيقول "لقد خيل إلىَّ زمنا كما لا يزال يخيل إلى أصحابى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله، لكننى أصبحت أخالفهم الرأى فى أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته. ولا مفر إذن من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطوار ماضينا هذه الحياة الروحية، ولقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه، ثم رأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحدة البذر الذى ينبت ويثمر" [د. محمد حسين

هيكل - منزل الوحى- (١٩٣٦) صـ٢٦ من المقدمة]. ويعلق د. جابر الانصارى على هذه الكتابة قائلاً "أن هيكل بهذه التوفيقية الفكرية يعبر عن تيار محمد عبده محاولا بعثة بعد أن تصدع بسبب الصراع بين التيار النصوصى المحافظ للشيخ رشيد رضا، وبين التيار العقلانى المجرد لطه حسين وعلى عبد الرازق قبل أن يتغيرا"[د. محمد جابر الانصارى - تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى - صـ٦٧] ثم يورد الانصارى اقتباساً من برنارد لويس يقول "انقلبت بهذا الموقف الصورة تماماً، فإذا الإسلام باعتباره قوة عقيديه اجتماعية سياسية جامعة يقوم، وإذا الليبرالية العلمانية تخسر، وحتى الليبرالية المخففة والمطعمة بعناصر تراثية أخذت تزيد من تقبلها للأفكار الإسلامية، وأصبح واضحاً أن رغبة العرب فى دفع السيطرة الأوربية عنهم أقوى بكثير من رغبتهم فى استيعاب الحضارة الأوربية".

وقد تمدد هذا الموقف البرجماتى والمتراجع ليشمل العقاد الذى تفرغ لكتابة العبقريات وطه حسين وعلى ومصطفى عبد الرازق وإسماعيل مظهر وآخرينمن الصفوة المثقفة. ويفسر "بادو" ذلك قائلاً "فى معظم أقطار الشرق الأوسط كان الاتجاه نحو العلمانية والإصلاح الاجتماعى سائداً، وكان التوجه الدينى كثيراً ما يقرن بالمحافظين والمتحجرين الذين يرفضون التقدم والسير مع الركب، واليوم نجد أن الدين قد عاد إلى مسرح الأحداث.. لكن نمو الظاهرة الدينية ليس إحياء عقيدياً فكرياً وإنما هو إحياء سياسى اجتماعى،

ليس فيه اجتهاد دينى وفكرى جديد وإنما هو محاولة تستخدم الدين لأهداف سياسية أى إحياء الدين كحزب سياسى" [ج- بادو وآخرين - التطور فى الدين - مجموعة دراسات إسلامية لعدد من المستشرقين الأمريكيين - ترجمة نقولا زيادة وآخرين - صـ٢٤٦].
أما عباس العقاد فيبرر تراجعه شخصياً قائلاً "بضرورة اللياذ بالعقيدة لأنها هى التى تعيد ذكرى القديم وتحمى أصحابها من غارات الأعداء وأيضاً من حركة المبشرين وكذلك الفزع من الشيوعية" بروز اليوسف - ١٢ أغسطس ١٩٣٥]. . تراجع الكثيرون من الصفوة. . ولكن بقى النضال ضد التأسلم ومن أجل الليبرالية مستمراً.

ليبرالية يسارية

وتراجع اليمين بعيداً عن معركة الليبرالية والحريات وتجديد الفكر الدينى تحت مطارق التكفير وسعياً نحو إرضاء القصر الملكى، وتطلعاً إلى المشاركة فى حكم البلاد على حساب حزب الوفد وفى مواجهته. وهنا بدأ دور اليسار الذى كان يركز على القضايا الاجتماعية ولا يتلمس مسألة الليبرالية والتجديد فى الدين إلا لماماً. بل كان لا يكف هو أيضاً، على الهجوم على حزب الوفد ربما بسبب الثأر القديم المتمثل فى قرار سعد زغلول بحل الحزب الشيوعى واتحاد العمال ومحاكمة قادته. والمعارك اليسارية مع الوفد طويلة، لكننى أختار منها نموذجاً فريداً لشاعر فريد هو أيضاً ويسارى شجاع هو محمود رمزى نظيم الذى كانت قامته فى ذلك الحين قريبة من قامة بيرم التونسى ومع ذلك طواه النسيان الذى فرضته عليه القوى

الرجعية بكافة أطيافها. ولدينا قصيدة عنوانها "بين برلمانين" كتبها نظيم بعد حل البرلمان الوفدى وبدء انتخابات جديدة. ونقرأ

دو شـــتـــونى ولا شئ جـــديـــد
فلا غـــلـب ولا حـــال ســـعـــيـــد
جموستى شركة العمدة وجحشى
بـتـاع الـشـيـخ والـغـفـرا شـهـود
وزعـــبـــوطى المـــقـــطع من زمـــان
هـو الـزعـبـوط والـزفت الـعـتـيـد

ثم هو يوجه كلامه لنواب الوفد الذين حل برلمانهم قائلاً:

أدى حـالـتى مـطـيـنـة تـبـكى
فـإيه الـلى عـمـلـتـوه يـفـيـد
خـشـشـتـوا الـبـرلمان فـكـان حـرباً
عـلى كـام قـرش يأخـذهـا الـعـبـيد
خـنـقـتـونـا وزدتـوهـا هـبـاباً
عـلى الـفلاح هل هـذا حـمـيـد ؟
ودى أنـتم قـد وقـعـتم تحت ايـدنـا
وللايـــام تـــصـــريف مـــجـــيـــد
وأنـتم يـا جـداد إذا انـتـخـبـتم
فـمـاذا تـعـمـلـوا مـاذا تـريـدوا ؟
شـفـونـا يـا خلايق أحـنـا مـنـكم
ومن مـصـر ومـحـنـاشى هـنـود.

[الحساب - ٣٠٦ - ١٩٢٥]. وتمضى الحساب فى معركتها الطبقية فى ظل مناخ تفرغ فيه الكثيرون للصراع الفكرى حول الخلافة وكتاب "فى الشعر الجاهلى" وكتاب "الاسلام وأصول الحكم" وتجديد الفكر الدينى ويعاود محمود رمزى هجومه الطبقى الحاد إذ يطالب العمال والفلاحين بالهجرة بعيداً عن الظلم الطبقى الذى يمارس ضدهم ويقول:

وسيبوا مصر للملاك تسكنها
يجندوا جيشها من خير شجعان
وسيبوا النيل للأسياد تحرسه
وقت العلو وقد أضحى كطوفان
ودوروا لنا على العمال إخوتنا
م إسكندرية لدمياط لأسوان
وسيبوا الشغل للملاك تعمله
ليصبحوا بين نجار وسنان
وساعدوهم على لم العزال وأنا
سايق حميركم وحاطط ديلى فى سنانى

ثم يمضى فى قصيدة طويلة قائلاً:

يكفى بقى غلبنا يكفى فضيحتنا
واللى جرى ينكتب فى كل جرنان
قال يتركونا وعن صحة سلامتنا
لا يسألوا فى انتخاب جاى من تانى

والأغنيا بس مندوبون ينتخبوا
للبرلمان فهم أرباب سلطان
والحاملين شهادات مقلوظة
كالأغنياء فهم أصحاب عرفان
وسبعة وتسعين فى الميه مكممه
عن الكلام وإن كانوا كسحبان
أما الثلاثة فى المية فإنهموا
أهل الرياسة فى أنس وفى جان
فإن يقولوا فمصر كلها نطقت
ومن بمصر سواهم غير جدعان
[الحساب - ١٨-٥-١٩٢٥]

ولكى أتباعد بالقارئ عن الدهشة من إيراد كل هذا القدر من الشعر، فإننى أعترف بتعمدى ذلك. لكى تأتى إمكانية المقارنة بين التعبير الفنى فى المحتوى الطبقى لليسار وبين ما كان بعد ذلك منذ بداية ثلاثينيات القرن الماضى من كتابات ورسوم تشكيلية وإشعار كتبت أصلاً بالفرنسية ثم ترجمت بعربية غير مفهومة، ومقالات سيريالية النسيج ورسوم من نوع لوحه اسماها صاحبها "التعبير عن مشاعر كرسى عندما تجلس عليه" وشعارات جميلة لكنها لا تقترب من ذهن المواطن العادى مثل "الفن معمل بارود" أو "من حق الإنسان أن يعيش حراً ٢٤ ساعة فى اليوم". وقصص كتلك التى كتبها البير قصيرى فلما لم يجد من يفهمها فى مصر غادر الى باريس وأبدع

هناك بالفرنسية. انه محتوى راق وليبرالى بل وأكثر من ليبرالى ولكنه بعيد عن مذاق الفلاح والعامل.. والحقيقة أن هذه الليبرالية قد تداخلت مع مساحة ما من النضال السياسى الذى جذب عديداً من مثقفى البرجوازية الصغيرة المصريين فتولد من ذلك صراع سياسى أفضى الى التحرر من هذه الأفكار المغموسة فى السيريالية وأيضاً التحرر من أصحابها. ولكن كيف كانت بداية هذا التيار الليبرالى الممعن فى التأجنب أى الاتجاه بشكل كامل نحو أفكار ورسوم وأشعار وشعارات أجنبية ؟

فى نهايات العشرينيات كانت الفاشية تتسلل إلى مصر ووجدت لنفسها مساحة واسعة وسط جالية إيطالية شديدة النشاط كثيرة العدد (قرابة ٧٠ ألف شخص) وتمتلك ٥٧ مدرسة تضم ١٠٦٨٨ طالباً فى عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤. [عبد الحميد فهمى مطر - التعليم والمتعطلون فى مصر - صـ١٩١] وفى أوساط هذه الجالية نشطت سفارة ايطاليا وشكلت فرقاً فاشية كانت تتهادى فى شوارع المدن المصرية بقمصانها السوداء، بما أثار مخاوف اليساريين الايطاليين. ثم أتت النازية الهتلرية واضطهادها لليهود بما أثار الفزع وسط اليهود فبدأوا هم أيضاً فى التحرك وربما كان الأكثر نشاطاً من اليهود ليون كاسترو [كان صديقاً لسعد زغلول وأصدر مجلة بالفرنسية ذات ميول وفدية أسماها Liberte[للمزيد حول دور ليون كاسترو وتحولة لخدمة الحركة الصهيونية راجع: أحمد محمد غنيم وأحمد أبو كف - اليهود والحركة الصهيونية فى مصر -

كتاب الهلال. وأيضاً د. رفعت السعيد - اليسار المصرى ١٩٢٥-١٩٤٠]. وكان هناك مثقفون يهود ومصريون ارستقراطيون تعلموا فى المدارس الفرنسية وخاصة الليسية ١٥٧ مدرسة تضم ١٨٦٥ مدرساً و ٣٢٤٩٥ طالباً] وكان عديد من المدرسين الفرنسيين يساريين أو قريبين من اليسار. ولعل ما أفزع هؤلاء جميعاً هو الصدى الذى وجدته الفاشية والنازية فى المناخ المصرى. ففى الصحافة كان هناك مديح كثير لهذا التيار يقال أنه كان مدفوع الأجر من سفارتى ألمانيا وإيطاليا فتقول أحدى هذه الصحف "لقد أتى موسولينى بأعمال مجيدة وجعل الشعب الايطالى يقلع عن كثير من العادات القديمة التى كادت أن تؤدى بإيطاليا إلى الخراب". [اللطائف المصورة - ٢٨ - ٢ - ١٩٢٧] ونقرأ مديحا لموسولينى لأنه "أسكت المعارضة فى البرلمان الايطالى وصان بذلك حياة المملكة التى كانت جرائدها ولسان معارضتها تقودها بخطوات سريعة نحو البلشفية" [قسطاكى إلياس عطاره - تاريخ تكوين الصحف المصرية - (١٩٢٨)- صـ١٩٧] وحتى الأهرام تكتب "ولقد يكون مفيداً لمصر وهى تتسلح للدفاع عن كيانها إزاء الدسائس الشيوعية إلقاء نظرة على الحرب العوان التى أعلنها الفاشست فى ايطاليا على العدو المشترك" [الأهرام ٨-٩-١٩٢٧] وحتى "السياسة" جريدة حزب الأحرار الدستوريين والتى كانت وحتى وقت قريب ليبرالية خالصة كتبت تقول: "لعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الروح الفاشستية تلقى تأييداً أشد حرارة من الروح البرلمانية" [السياسة - ٣١-٨-

١٩٣٦] ثم كانت هناك القوى المنظمة التى جعلت من نفسها سنداً للفاشية ومنها أحمد حسين [حزب مصر الفتاة] الذى كان يصرخ بأعلى صوت "نكره هذا النظام البرلمانى الذى يقوم على تعطيل الإعمال وتعويق الإنتاج والذى يحول البلاد إلى مسارح للخطابة ونحن نريد فى نهاية الأمر نظام لا تكون فيه الكلمة للجهال وهم فى كل مكان الأكثرية" [الصرخة - ٧-١٠-١٩٣٣] ثم لا يلبث أن يقول "الفاشية فيها كثير من الإسلام" [الصرخة ١-٣-١٩٣٥] ووجدها القصر الملكى والذى كان يسيطر عليه ثالوث من الشيخ المراغى - على ماهر - كامل البندارى الفرصة ليستخدم هذه القوى السياسية ذات النزعة والعلاقات الفاشية فى صراعه ضد الوفد، وتكتب جريدة المصرى الوفدية وهى تتحدث عن الفاشست المصريين "فالديكتاتورية إذا كانت شراً فى صورتها الشعبية كما هى فى ايطاليا وألمانيا فإن شرها يتجاوز الحدود والقيود إذا تولاها رجال السراى، وقد صدق زعيم الأمة إذ قال "ليس أسوأ من حكم رجال السراى فى أى بلد من البلاد" [المصرى -٣-٧-١٩٣٨].. ويتحدث النحاس عن ذلك كله معلناً فى البرلمان عندما كان رئيساً للوزارء "أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد" [مجلس النواب - الهيئة النيابية السادسة - مضبطة جلسة ٢٢-٧-١٩٣٦ - صـ٩٧] وألمحت الصحف الوفدية إلى إن هذه الدولة هيايطاليا وقالت آخر ساعة "لقد أنفقت أيطاليا فى عام ١٩٣٥ مبلغ ٢٠ ألف جنيه على الدعاية وتضاعف هذا المبلغ فى

عام ١٩٣٦" [آخر ساعة - ١٩-٧-١٩٣٦] وتكتب مجلة The communist international "إن القاهرة هى أحد المراكز الرئيسية للدعاية الفاشستية وللتجسس لحساب ايطاليا وألمانيا، والدعاة الفاشست يرددون للجماهير المسلمة أكاذيب تقول أن الكثيرين من الألمان والايطاليين قد اعتنقوا رسالة محمد وهم يوزعون كتاب "كفاحى" لهتلر كأنه قرآناً جديداً.

[6 (1939) P 476 . xvll No. Vol]

ولعل هذه المجلة كانت تتابع كغيرها ما كتبه الأستاذ البنا فى مجلته النذير إذ قال "ذكرت بعض الصحف أن ألمانيا وإيطاليا تفكران فى اعتناق الإسلام. وقررت ايطاليا تدريس اللغة العربية فى مدارسها الثانوية بصفة رسمية وإجبارية، ومن قبل سمعنا عن تفكير اليابان فى إشهار الإسلام". [النذير - ٤ ذى القعدة ١٣٥٧ - العدد ٣٠- مقال للأستاذ حسن البنا] وسارعت شعب جماعة الإخوان إلى الترويج لقصة تقول أن هتلر قد أسلم وقام بالحج سراً وأسمى نفسه الحاج محمد هتلر. وتتحول الشائعات إلى تقارير رسمية ونقرأ "ففى لقاء بين السير والترسمارت المستشار الشرقى السفارة البريطانية مع وكيل وزارة الداخلية. قال وزير الداخلية أن حسن البنا يتلقى أموالاً من ألمانيا وإيطاليا والقصر [محسن محمد - من قتل حسن البنا - صـ٨٨] ثم نكتشف نحن وثيقة مترجمة بالانجليزية عن أصل بالألمانية ضبطت لدى مدير مكتب الدعاية الألمانى Herr wilhelm Stellbogenوهى عبارة عن مذكرة مكتوبة بالاختزال تقول "لقد

أرسلت البعثة إلى حسن البنا مرة أخرى ذات المبلغ بذات الطريقة لكنهم طلبوا مزيداً من المال رغم أننى سلمتهم ألفى جنيه [المتحف البريطانى - وثائق الخارجية البريطانية - ١٩٣٩ "F.0.- 371 No. 22-1-1939 - 23342 ووثيقة أخرى تقول "إن دفعة جديدة من الأموال لجماعة الإخوان المسلمين قد أصبحت فى اعتقادى ضرورية جداً" [مكتب الأمن العسكرى - مصر 0371 - No.F. 23342]. وفى ظل مناخ كهذا.. يكون من المنطقى أن يتجمع الليبراليون من كل صنف بحثاً عن حماية لأشخاصهم إن كانوا يهوداً أو سعياً للدفاع عن أفكارهم المناهضة للفاشية.

وتبدأ موجه من التجمعات التى بدأت أجنبية صرفه ثم تداخل فيها عدد من المثقفين المصريين ذوى الثقافة الفرنسية بالاساس. وكوّن ليون كاسترو فى نهاية العشرينيات جماعة أسماها Essayistes [المحاولين] كجماعة ثقافية علمية ضمت عدداً من الايطاليين واليونانيين وقليل من الشوام وقليل جداً من المصريين وأصدرت مجلة أسمتها Léfforte [المجهود] وتجمع داخل هذه الجماعة تيار يسارى تزعمه زكى ليفى الذى أصدر مجلة بالفرنسية أيضاً أسماها La gerbe [الحزمة] [محضر نقاش مع إدوارد ليفى فى باريس نوفمبر ١٩٦٨] ومع تصاعد المد الفاشى فى أوربا واستشعار اليهود والقوى الليبرالية بالخطر تكونت فى مدارس الليسية حيث أبناء الاستقراطية المصرية موجات من العداء للفاشية. وفى عام ١٩٣٤ تجمع عدد من الاجانب من جنسيات مختلفة برئاسة بول جاكو دى كومب وأسسوا "اتحاد أنصار السلام" [محضر

نقاش مع دينا فورتى - أجرى فى روما ٢٤-٢-١٩٧٢] وقد أنضم الى هذه الجمعية عديد من الشعراء والفنانين الاجانب ومنهم الشاعر اليونانى الشهير فيوبيريديس [محضر نقاش مع بول جاكو دى كومب- أجرى فى باريس فى نوفمبر ١٩٦٨] وفى الجالية اليونانية [كان عددها قريباً من ٤٠٠ ألف فى بلد مجموعة سكانه ١٦ مليون وكان لدى هذه الجالية ٦١ مدرسة تضم ١٢٠٠٢ طالباً] نهضت حركة ثقافية ليبرالية تضم شعراء ورسامين مشهورين منهم أنزلوا بولو وحاجى أندريوس وهو كاتب روائى مشهور كان يكتب رواياته بإسم غير أسمه هو تسيركوس. وفى إطار هذا النشاط بدأت موجه ليبرالية مصرية بالأساس ومتمركزة فى ميدان الفن والأدب بالأساس أيضاً. وفى بيت الفن [5شارع الحبالة بالحلمية الجديدة] تجمعت نواه من الفنانين التشكيليين والمثقفين والشعراء بزعامة الفتى الارستقراطى جورج حنين والذى تحدى الأسرة وتزوج من مسلمة هى إقبال [بولا] العلايلى حفيدة الشاعر أحمد شوقى، وكان جورج حنين يعلن شعار "الفن معمل بارود" ويعتمد السيريالية مذهباً ليس فقط فى الرسم وإنما حتى فى الكتابة والشعر وذلك بهدف إثارة "الاستغراب" فى نفوس الجماهير، مؤكداً "إن كل راحه ونعمة فى الحياة الجديدة ولدت فى أذهان رجال شذوا عن العرف والمألوف" [مجلة التطور - يناير ١٩٤٠ - مقال لكامل التلمسانى بعنوان نحو فن حر] ويمكن القول أن جماعة الفن والحرية هى امتداد متمصر لجماعة المحاولين. ففى ندوة لجماعة المحاولين عقدت فى ٦ أبريل ١٩٣٩ ألقيجورج بحثاً قال فيه "إن هدفنا ليس تغيير

الرغبة بل تغيير المجتمع وتكييفه مع رغباتنا. ولا يمكن للفن أن يكون عاطفياً فحسب، فهو ضد النظام القائم وضد الطبقة الحاكمة وضد الخداع وضد الركوع البوذى فالفن ليس سوى مخزن ذخيرة" [نشرة بالفرنسية مطبوعة بالرونيو 2-May1939. ART et Libarte-No]..

وفى معرض لفؤاد كامل شقيق أنور كامل كانت لوحة باسم رسم لمشاعر كرسى عندما تجلس عليه. وبطبيعة الحال إنتقد البعض حنين وجماعته لأن كتاباتهم وأشعارهم باللغة الفرنسية وحتى لو كتبت بالعربية جاءت غامضه وغير مفهومه وبعيدة عن مشكلات الجماهير ورد هوعلى ذلك قائلاً "لقد حذرونا قائلين هذه الجماعة لماذا تتمسكون بسجنها داخل الإطار المحدود؟ ألستم بذلك تتباعدون عن صفوف هؤلاء الذين لا يحملون تجاه الفن سوى الفضول وليس الاهتمام؟ ونحن نجيب على هؤلاء أن الفن يعتبر فى نظرنا ليس مجرد صور أو أشكال منحوتة أنه شئ آخر تماماً فهو فوق كل ترجمة ممكنة للحياة، وفوق كل تعبير مؤقت أو أبدى عن المشاعر" [نشرة بالفرنسية مطبوعة بالرونيو - 1 - Mars 1939. ART et Libarte - No] ووسط هذا المناخ شعر البعض الأقل ثراء والأكثر شعبية وحماساً بالغربة، وأحياناً بعدم الجدوى ويصف لطف الله سليمان وضعه بينهم قائلاً "كانت أجواء شديدة الجمال والجمالية وكان أغلبهم ينتسب إلى البرجوازية الكبيرة، وفى هذا الجو المخملى كنت أشعر أننى كزنجى بين ارستقراطيين من البيض" [البلاد - لندن - حوار بعنوان لطف الله سليمان يتذكر - معارض دائم على طريقته]. وتمايز المصريون وأسسوا "جمعية الخبز

والحرية" التى ضمت أنور كامل - أسعد حليم - فتحى الرملى - صالح عرابى - د.عبد العزيز هيكل [محضر نقاش مع أسعد حليم فى ٢٠-١-١٩٦٩] وتكاثرت الجماعات الليبرالية ذات النكهة المصرية ومنها : نحن أنفسنا - جماعة البحوث - جماعة الشباب للثقافية الشعبية - الاتحاد الديمقراطى - المركز الثقافى الاجتماعى - لجنة نشر الثقافة الحديثة - جماعة أصدقاء الثقافة - دار الأبحاث العلمية.. وعديد من الجمعيات الأخرى التى كانت تعقد ندوات وتصدر نشرات وبيانات بحيث كانت القاهرة تموج بحركة ثقافية ليبرالية لم تشهدها من قبل. ومع هذه الجمعيات نشطت حركة النشر.. روايات دواوين شعر ومجلات منها التطور والفجر الجديد والجماهير وأم درمان وغيرها ويمكن أن نتفهم طبيعة بعض هذه الصيحات من إلقاء نظرة متعجلة على بعض أعداد التطور.. ونقرأ عناوين مثل "نحن نؤمن بالتطور الدائم - نحن نقاوم الأساطير والخرافات ونكافح القيم المتوارثة - الدولة التى لا عدالة فيها خير لها ألا تكون - الفن معمل بارود - على الدولة أن تكفل للمواطن حقهفى الشعر والموسيقى والجنس والخبز [التطور أعداد - يناير - فبراير - ابريل ١٩٤٠].

وهكذا تهيأت التربة المصرية لجيل جديد من الليبراليين لكنه وبدلاً من أن يكون كجيل العشرينيات ذا نكهة يمينية أصبح هذه المرة فى الأربعينيات ذا نكهة يسارية وبذلك أصبحت المعركة ضد قوى التأسلم أكثر صعوبة وأكثر تعقيداً.

تأسلم على الطريقة الاخوانية

ونأتى الى جماعة الاخوان المسلمين التى أتت إلى الساحة فى عام ١٩٢٨ . وقد اختلف الإخوان أنفسهم فى تاريخ نشأتها فقد أكدوا أنه شهر ذى القعدة عام ١٣٤٧هـ [ونلاحظ أن حسن البنا أورد التاريخ الميلادى المرادف له على أنه مارس ١٩٢٨ . ولكن روزنتال وفى مقال له بعنوان "الاخوان المسلمين فى مصر" المنشور فى مجلة عالم الإسلام أكتوبر ١٩٤٧ - أكتشف من مقارنة التقويمين أن ذى القعدة ١٣٤٧هـ يوافق ابريل ١٩٢٩] (*) وكان تأسيس الجماعة بداية لربط السياسة بالدين فى العصر الحديث، أو بالدقة اتخاذ الدين ستاراً لفعل وتنظيم هو سياسى فى الجوهر. وقد أدى ذلك إلى محاولات جاءت بائسة فى بعض الأحيان لايجاد تبرير فقهى لما لا يمكن تبريره وفق التعاليم الصحيحة للإسلام. وبدأ ما يمكن تسميته "بالتفيقه" [أى إدعاء معرفة

الفقه] وهو ما رفضه عمر بن الخطاب عندما سئل "فى القرآن الكريم نجد "وفاكهة وأباً" فما هو الأب فقال لا أعرف ثم أضاف نهينا عن التفيقه" .. ونسيان الحديث الشريف "أوغلوا فى هذا الدين برفق" . والآية الكريمة "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهو يحسبون أنهم يحسنون صنعاً" . وإذا كانت أسلمة السياسة قد بدأت من الخلاف حول الخلافة ثم استخدام الدين كغطاء لتكفير الخصوم ومن ثم إباحة قتلهم رغم أنهم يعلنون ويجهرون بأنهم مسلمون. وينسون ما رواه البخارى ومسلم أوبو داود من أن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال "أتيت رسول الله وقلت أرأيت إذ لقيت رجلاً من الكفار فإقتتلنا فضرب إحدى يدىَّ بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة وقال "أسلمت لله" أأقتله فقال رسول الله: لا تقتله. فقلت: أنه قطع إحدى يدى ثم قال ذلك؟ فقال النبى: لا تقتله فإن قتلته كنت بمنزلته قبل أن يقولها" . وقد أستند حسن البنا فى معاركه التى سبقت تأسيس الجماعة إلى عدة معطيات أعتبرها تبعد الإنسان المسلم عن إيمانه ومنها موضوع الخلافة، وأيضاً ما أسمى فى أدبيات ذلك الزمان بالتغريب أى التأثر بالفكر الغربى والحضارة الغربية وأيضاً مناهضة التبشير. وفيما يتعلق بالتغريب نراه وهو لم يزل فى السنة النهائية فى كلية دار العلوم وقد طُلب منه أن يكتب مقالاً يجيب على سؤال: كيف تتحدث عن الآمال الكبيرة التى تراودك بعد إتمام دراستك وبينّ كيف ستعد نفسك لتحقيق هذه الآمال" . فقال فى هذا المقال "إننى أعتقد إن شعبى قد ابتعد عن

أهداف إيمانه نتيجة للمرحلة السياسية التى مر بها، والتأثيرات الاجتماعية التيتعرض لها وتحت تأثير الحضارة الغربية، والفلسفة المادية والتقاليد الإفرنجية" . أما الخلافة فقد تحدثنا عنها طويلاً، لكن البنا ظل متأثراً بمقولات للشيخ عبد العزيز جاويش الذى أختلف مع محمد فريد فى تحديد نزعة الحزب الوطنى وحاربه بما أضعف الحزب كثيراً. ويقول فريد عن جاويش "إن حبة للدولة العثمانية قد أدى به إلى نسيان مصر وحقوقها، فقد أصبح يقول أن مصر للمسلمين لا للمصريين، وهو لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الإسلام وقد قال أخيراً فى برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية. قائلاً أنه لا وطنية فى الإسلام" [محمد صبيح - مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية - صـ٣٨٩- نقلاً عن مذكرات محمد فريد الخطية] والمثير للدهشة أن قيادات جماعة الإخوان الآن وعلى رأسهم د. محمد بديع المرشد العام لم يزالوا يتحدثون عن الخلافة ويؤكدوا سعيهم نحو العودة إليها ناسين ما قاله أحد الباحثين. معلقاً على استمرار الحديث فى هذا الأمر "أن ضعف الخلافة العثمانية ثم انهيارها على يد زعيم تركى هو أتاتورك قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية الإسلامية وشجع وأسس للنزعات الوطنية والقومية".

[M-The Arab world to day p. Beger. 83]

* يلاحظ وهذا مثير للدهشة أن جماعة الإخوان احتفلت بعيد تأسيسها العاشر فى يناير ١٩٣٩. ثم عادت لتحتفل بعيد تأسيسها العشرين فى سبتمبر ١٩٤٨.

أما مسألة التبشير فقد التهبت بالفعل فى بداية الثلاثينيات. والحقيقة أننى وعدد غيرى من الباحثين قد تصفحنا العديد من صحف هذه الفترة بحثاً فى هذا الأمر فلم نجد إشارة واحدة إلى تحول مسلم إلى المسيحية، وإن كانت هناك إيحاءات مبهمة عن اختفاء عدد من الشبان وكلمات غامضة عن احتمال أن يكون ذلك بسبب من تغيير الدين وحتى هذه الحالات كانت محدودة جداً. وإن كانت هناك دلائل قوية حول عمليات نشطة لتحويل مسيحيين أرثوذوكس إلى الكاثوليكية والبروتستنتية جرت فى محافظات الصعيد الفقيرة وخاصة المنيا وأسيوط والتى كانت مزدحمة بفقراء الأرثوذوكس وأزدحمت هذه الأماكن أيضاً بعيادات ومستوصفات ومستشفيات تابعة للكاثوليك والبورتستانت وكذلك مدارس عديدة [الفرير - الفرنسسكان - الجزويت - السكركير ومدارس الإرساليات الأمريكية البروتستنتية وعبر الخدمات المجانية أمكن استقطاب عديد من الارثوذكس. ومن هنا يمكن القول أن أغلب عمليات التبشير كانت اختراقاً كاثوليكيا وبروتستنتيا للأرثوذكسية. لكن كثرة الحديث عن هذا الموضوع بهدف إثاره المشاعر الإسلامية ومواجهة ما أسموه بالتغريب، قد شجعت الحركة الصهيونية التى تواجدت فى الجالية اليهودية للحديث عنها "فشنت جريدة "اسرائيل" التى أسسها البرت موصيرى كجريدة صهيونية حملات غوغائية استهدفت إشعال الفتنة الطائفية وبدأت فى نشر سلسلة من المقالات بعنوان "كيف حاولوا تنصيرى" [إسرائيل - ١٧ يوليو

١٩٣١] ثم بدأت فى نشر معلومات لا يعرف أحد مدى صحتها لأنها كانت مبهمة بشأن قيام مدارس كاثوليكية بمحاولة تنصير طلاب يهود [إسرائيل ٣١ يوليو ١٩٣١] ولما لم تجد صدى لهذه الدعاوى بدأت فى الحديث عن تنصير شبان مسلمين ولم تورد أيه أسماء وبدأت حملة هجوم عاصفة على المسيحية" [إسرائيل ٥ فبراير ١٩٣٢] وينتهز البنا الفرصة محاولاً أن يركب الموجه فيوجه رسالة إلى "سدة صاحب الجلالة الملكية الملك فؤاد حامى حمى الدين ونصير الإسلام والمسلمين مليك مصر المفدى يتقدم أعضاء مجلس الشورى العام للإخوان المسلمين المجتمعون بالإسماعيلية والممثلون لخمسة عشر فرعاً من فروع الجمعية بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٥٢هـ برفع أصدق آيات الولاء والإخلاص لجلالتكم وسموولى عهدكم المحبوب ويلجأون لجلالتكم راجين حماية شعبكم المخلص من عدوان المبشرين على عقائده وأبنائه بتكفيرهم وتشريدهم وإخفائهم وتزويجهم من غير أبناء دينهم" ويكشف المؤرخالمعتمد للجماعة محمود عبد الحليم حقيقة المسألة فيقول بصراحة مثيرة للدهشة "ولولا حركة التبشير لما أستطاع حسن البنا أن يجمع على العمل الاسلامى هؤلاء الرجال الذين لم تكن تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة، وجزى الله الشدائد كل خير" [محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - الجزء الأول - صـ٣٦] . . هكذا بدأ حسن البنا مستنداً الى هذه المقولات الثلاث الخلافة - التغريب - التبشير فى تأسيس جماعته. حدأح

ونتابع ما كتبه حسن البنا فى بدايات رحلته السياسية، ونقرأ "كنت متألماً أشد الألم، فهـا إنا ذا أرى إن الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين أسلامها الغالى العزيز الذى ورثته وحمته وألفته وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرنا كاملة، وبين هذا الغزو الغربى العنيف المسلح والمجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة والقوة ووسائل الدعاية" [حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - صـ١٥](*) وفى كتابه أخرى نقرأ "إن الأمة مصابه من ناحيتها الفكرية بالفوضى والمروق والإلحاد، مما يهدم عقائدها ويحطم المثل العليا فى نفوس أبنائها فى ناحيتها الاجتماعية بالإباحية فى عاداتها وأخلاقها والتململ من الفضائل الإنسانية التى ورثتها من الغر الميامين من أسلافها، إن التقليد للغرب يسرى فى مناحى حياتها سريان لعاب الافاعى فيسمم دماءها ويعكر صفو صفائها. بالقوانين الوضعية التى لا تزجر مجرما ولا تؤدب معتديا ولا ترد ظالماً ولا تغنى يوما من الأيام غناء القوانين السماوية.. وهكذا تخرج الأمة من صفوف المجاهدين الى صفوف اللاهين اللاعبين" [حسن البنا - دعوتنا] ونتوقف أمام ألفاظ مثل المروق - الإلحاد - الإباحية - التقليد للغرب. رفض القوانين الوضعية.. لنكتشف إن كل ما يردده متطرفوا اليوم من السلفيين المتأسلمين قد استقوه من بئر كتابات الأستاذ البنا. ثم نقرأ "أيها الإخوان المسلمون، بل يا أيها الناس أجمعين من الحق أن نعترف بأن موجه قوية جارفة وتياراً شديداً دفاقاً قد طغى على

العقول والأفكار فى غفلة من الزمن، وفى غرور من أمم الإسلام ظهرت نظم وفلسفات وتأسست حضارات ومدنيات نافست فكرة الإسلام فى نفوس أبنائها ودخلت بلداتهم وبيوتهم ومخادعهم. فنشأ فى كل الامم الإسلامية جيل مخضرم إلى غير الإسلامأقرب، تصدر فى تصريف أمورها، وإحتل مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية، فدفع بالشعوب مغافله لها إلى ما يريد وهى لا تدرى ما يراد بها"[حسن البنا - مجموعة رسائل الإمام الشهيد - رسالة تحت راية القرآن - صـ٩٥] ويهاجم حسن البنا بعنف شديد "الجامعة المصرية" والتيكانت فى ذلك الحين طاقة الضوء الأساسية للمثقفين المصريين فيقول انها "قامت بثورة على الدين، وهى تتسم بالتوجه العلمانى والاندفاع نحو التفكير المادى المنقول عن الغرب بحذافيره". واتهم أساتذتها وطلابها "بالتحلل والانطلاق بعيداً عن كل القيود، كما ظهرت كتب وجرائد ومجلات كل ما فيها ينضح بالدعوة للتحرر الذى لا هدف له إلا أضعاف أثر الدين أو القضاء عليه فى نفوس الشعب، لينعم فى زعم الكتاب والمؤلفين بالحرية الحقيقية فكرياً وعملياً" [مذكرات الدعوة والداعية - المرجع السابق صـ٤٩].

وامتداداً لهذا الفكر كتب الكثيرون من الإخوان فى ذات الاتجاه، ووصل الأمر إلى شن حملات فكرية على قادة الحركة الوطنية المصرية لأنهم إتجهوا بمصر نحو الاستقلال، فيهاجم أحدهم مصطفى كامل ومحمد فريد "لأن حركتهما كانت متجهه إلى كسب

الاستقلال [وكأن فى ذلك عيب] وليس للعمل على رد الناس الى أصول دينهم"

وعلى ثورة ١٩١٩ "لأنها جاءت لتعترف فى إنهزامية فكرية بسياسة الأمر الواقع من حيث النظام السياسى والاستسلام لجحافل الغزو الفكرى والخلقى" [راجع على سبيل المثال - عبد المتعال الجابرى - لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا - صـ١٤].

والمثير للدهشة هو أن البنا ورجاله لم يهتموا على الإطلاق بتثقيف رجال الإخوان. فحسن البنا كما قال مؤرخ الجماعة محمود عبد الحليم سئل من أخوانه وعارفى فضله لماذا لا يؤلف كتاباً فى التفسير أو الفقه وألحوا عليه فى ذلك، لكنه كان يقول: "دعونى من تأليف الكتب فالمكتبة الاسلامية متخمة بالمؤلفات، ومع ذلك فإنها لم تفد المسلمين شيئاً حين قعدت هممهم وثبطت عزائهم وركنوا إلى الدعة والخمول والوقت الذى أضيعه [لاحظ لفظ أضيعه] فى تأليف، كتاب أستغله فى تأليف مائة شاب مسلم يصير كل منهم كتاباً حياً ناطقاً أرمى به بلداً من البلاد فيؤلفها كما ألف هو" [محمود عبد الحليم- الإخوان المسلمين، أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل - الجزء الثانى - صـ٣٤٥] ونمضى مع محمود عبد الحليم لنقرأ "كانت الأجيال التالية مباشرة للرسول "أحسن منا حالاً وأقرب الى الدين منا ومع ذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن القرآن أُنزل إليهم ليعملوا به فاتخذوا من دراسته عملاً. وإن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد

اسقط العمل به" [المرجع السابق - صـ٥] وفى كتابه "رسالة التعاليم" يحدد حسن البنا واجبات الأخ المجاهد وعددها ٣٨ واجباً، ولا يورد فيها التعمق فى دراسة التفسير أو الفقه وإنما الواجب ٢٥ يقول "إن تقاطع المحاكم الأهلية وكل قضاء غير اسلامى، كذلك الأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التى تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة"، وفى البند ٣٧ يأمر العضو "أن تتخلى عن صلتك بأيه هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها فى مصلحة فكرتك" [حسن البنا - رسالة التعاليم - صـ١٢] ويسير المفكرون الإخوانيون على درب أستاذهم فالدكتور على جريشة يقول "ولا خلاف فى جهاد من منع بعض شريعة الله، وأولى به من منع كل الشريعة والقعود عن الجهاد تهلكه نهى الله عنها" [د. على جريشة- أصول الشريعة الإسلامية - صـ٤٩]. وكذلك الأستاذ عبد القادر عودة الذى قال بتكفير كل قائل بالقانون الوضعى. والغريب انه ظل وحتى آخر أيام حياته محامياً مرموقاً مترافعاً على أساس القوانين الوضعية. ونقرأ له "ومن الأمثلة الظاهرة على الكفر بالامتناع فى عصرنا الحالى الامتناع عن الحكم بالشريعة الإسلامية وتطبيق القوانين الوضعية بدلاً منها" [عبد القادر عودة - التشريع الاسلامى الجنائى - الجزء الثانى - صـ٧١٠] ويقول "فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا لأنه يفضل غيره من أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعاً [المرجع السابق - صـ٧٠٩](*) وعلى هذا الدرب لم يزل كثيرون يسيرون. وتزعم جماعة الإخوان

لأسباب سياسية صرفة رفضها لهم. دون أن تتجاسر على نقد حرف واحد مما كتبه حسن البنا. بل هى ملتزمة بكل ما قاله الإمام البنا وسيد قطب.. وإنما تتستر حتى تتمكن، هذا عن الفكر فماذا عن الأفعال.. وخاصة الموقف من الإرهاب.

ولأننا أكدنا أكثر من مرة وعبر زمان طويل.. " أن الإرهاب يبدأ فكرا ". فقد كان من الطبيعى عندما يستخدم حسن البنا ضد خصومه ألفاظ التكفير والإباحية والعداء للدين ورفض الآخر أن ينعكس ذلك عمليا فى أعمال إرهابية ضد الكفار. ومن هنا تأتى مسئولية الكلمة التى لا يتوب عنها أصحابها على عاتق صاحب الرأى أو صاحب الفتوى. ولهذا كان الخلاف الشهير داخل صفوف الجماعة عندما طالب أحد القادة [يقال أنه د. عبد المنعم أبو الفتوح] بضرورة نقد ما ورد فى أدبيات الجماعة قديمها وحديثها من أراء متطرفة. لكن الجماعة رفضت وتمسكت بأن كل حرف نطق بيه حسن البنا يجب أن يبقى مصانا ومحترما وربما مقدسا. وعلى أية حال تحولت كلمات البنا إلى أفعال. ولأننا لسنا بصدد التأريخ للجماعة وهو ما فعلناه من قبل فأننا نكتفى بالتوجه المتأسلم فيها والمؤدى إلى إرهاب لم يزل يهددنا حتى الآن. ألم يقل له الذين كانوا أول من بايعوه فى الإسماعيلية " إنا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين والامة كما تعرف أنت، وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك كل ما نملكه حتى نصبح فى حل من المسئولية أمام الله، ولكى

تصبح أنت مسئولا أمامه عما يجب أن نقوم به" [مذكرات الدعوة والداعية – صـ٧٣] وأستعيد الجملة الأخيرة لمجرد التأكيد " لكى تصبح أنت مسئولا أمام الله عما يجب أن نقوم به " ولسنا نقول بأكثر من ذلك فإن قادة الجماعة القدامى والجدد والجماعة ذاتها ستظل مسئولة أمام الله عن كل فعل متأسلم إرهابى كان أو بذر للفتنه أو دعوة للتشدد هذا كله سيظل معلقا فى عنق الجماعه حتى تشهر توبتها عنه.

ونقارن ما قاله البنا ومن أتوا بعده وما فعله ويفعله رجالهم. فالذين يستخدمون آليات الخصومة الكلامية بأشد الألفاظ عنفا وبعدا عن اللياقة يتبعون قول حسن البنا لرجاله متحدثا عن السياسيين فى عصره "ستخاصمون هؤلاء فى الحكم وخارجه خصومه شديدة لديدة أن لم يستجيبوا لكم " [النذير – العدد الأول – مايو ١٩٣٨ – الافتتاحيةبقلم حسن البنا] والتقلب فى المواقف هو أيضا درس لقنه البنا لتلاميذه. فبعد أن هاجم البنا الدستور هجوما شديدا وقال " أن فيه ما يراه الأخوان مبهماً غامضا يدع مجالا للتأويل والتفسير الذى يمكن من إعمال الأهواء" [رسالة المؤتمر الخامس] وإذ يغضب القصر الملكى من نقد الدستور يعود البنا متراجعا دون حذر مؤكدا "إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن وأن ما نحتاج الى تعديل منه يمكن أن يعدل بالطريقة التى رسمها الدستور ذاته" [أنور الجندى – الإخوان المسلمون فى ميزان الحق – صـ٦٢] ويبدو أن هذا الاعتذار لم يكن

كافيا عند القصر الملكى فعاد حسن البنا ليقول "وما كان لجماعه الإخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه، ما كان لها أنتفعل ذلك وهى جماعه مؤمنة مخلصة تعلم أن إهاجة العامة ثورة، وأن الثورة فتنة وأن الفتنة فى النار [النذير - مقال لحسن البنا - العدد ٣٣] وهكذا فأن ما يحدث الآن من تصرفات ومواقف وتراجعات، كل ذلك معدود من أدبيات الجماعة وأسلوب تربيتها لرجالها. ومن الفعل الأرهابى أيضا: الفتوى، فالمفتى الاخوانى أو السلفى يطلق الفتوى كقذيفة ثم يتركها لتنفجر فى عقول ونفوس جرى تجهيزها لتقبلها والخضوع لمعطياتها: ونأتى لنموذج شديد الخطر، وهو الاجتراء المتطرف على الكنائس واستسهال عمليه الهجوم عليها وإحراقها وحتى الاعتداء على الكاتدرائية التى هى الرمز المقدس للأقباط ولمصر، لنجد أن هناك فتوى لازالت تتفاعل حتى الآن بل ويجرى تداولها فى الأوساط الإخوانية والسلفية.. ففى مجله " الدعوة" لسان حال جماعه الإخوان سؤال عن حكم بناء الكنائس فى الإسلام والفتوى جاءت على لسان مفتى المجلة الشيخ عبد الله الخطيب ونقرأ فيها " حكم بناء الكنائس فى ديار الإسلام على ثلاثة أوجه الأول: بلاد أحدثها المسلمون وأقاموها كالمعادى والعاشر من رمضان وحلوانوهذه البلاد وأمثالها لا يجوز فيها أحداث كنيسة. والثانى: ما فتحه المسلمون فى البلاد بالقوة كالإسكندرية بمصر والقسطنطينيةبتركيا وهذه أيضا لا يجوز بناء هذه الأشياء [لاحظ

كلمة الأشياء] فيها وبعض العلماء قال بوجوب هدم ما وجد فيها من كنائس. والثالث: ما فتح صلحاً بين المسلمين وبين سكانها والمختار هو إبقاء ما وجد بها من كنائس وبيع على ما هى عليه وقت الفتح، ومنع إصلاح أوإعادة ما هدم منها وواضح أنه لا يجوز إحداث كنيسة فى ديار الإسلام" [الدعوة - عدد ديسمبر ١٩٨٠]. . هذا هو الفكر الاخوانى، وهو ينكر حتى تعاليم الرسول الكريم بالحفاظ على كنائس وبيع غير المسلمين وينكر أيضاً مواقف الحكام المسلمين إبتداء من عمرو بن العاص فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب وما بعده. وما يهمنا هو أن هذه الفتوى وجدت سبيلها ولم تزل حتى الآن بل وستظل إلى أمد، لينفذها البعض ويؤكد بأنه لا يجوز إحداث كنيسة فى ديار الإسلام. ولست أدرى من أين أتى المفتى الاخوانى بهذه الفتوى ولا لأى مصدر أستند، سوى مصدر العداء للمخالفين فى الرأى والموقف والعقيدة. ولست أدرى ما هو موقف الحكومة الإخوانية من هذه الفتوى ؟ ولا ماذا سيكون مصير أى طلب يجرى التقدم به من جانب البطريركية لبناء كنيسة ؟ وهل لهذه الفتوى علاقة بإمتناع د. مرسى عن زيارة البطريركية، أو لها علاقة بالاعتداء على هذا "الشئ" الذى يسمى كاتدرائية ؟ وسؤال آخر هل لهذه الفتوى علاقة بالامتناع عن إصدار قانون بناء دور العبادة الموحد وهل له علاقة بالقانون المريب الذى سبق إعداده أيام حكم المجلس العسكرى وأيام كان إعداد القوانين فى أيد إخوانية أو شبه إخوانية. وهو قانون وضع خصيصاً بصياغات محددة تستهدف

أن يرفضه جميع المسلمين ويرفضه جميع المسيحيين.. فيبقى الحال على ما هو عليه.

وعلى أية حال فإنانعكاسات التعليمات والأفكار والأدبيات الإخوانية وجدت تنفيذاً عملياً لها فى أفعال إرهابية تواصلت على يد الإخوان وجهازهم السرى ثم تمددت للتنفيذ على يدى جماعات الإرهاب المتأسلم فى ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى. ولعلها لم تزل قائمة فى أذهان وعقول الإرهابيين المتأسلمين حتى اليوم.

والحديث عن التكفير ومواجهة الإلحاد والتغريب يقترن بضرورة العنف كأداة لردع المخالفين، وإذا كان الشيخ عبد الرحمن الساعاتى والد الأستاذ حسن البنا قد خاطب الإخوان قائلاً استعدوا يا جنود وليأخذ كل منكم أهبته ويعد سلاحه ولا يلتفت منكم احد وامضوا إلى حيث تؤمرون" ثم "صفوا لهذه الأمة الدواء وأعكفوا على إعداده فى صيدليتكم فكم على ضفاف النيل من قلب يعانى وجسم عليل، ولتقم على إعطائه فرقة الإنقاذ منكم فإذا الأمة أبت فأوثقوا يديها بالقيود وأثقلوا ظهرها بالحديد، وجرعوها الدواء بالقوة. وإن وجدتم فى جسمها عضواً خبيثاً فإقطعوه أو سرطاناً خطيراً فأزيلوه.. فكثير من أبناء هذا الشعب فى آذانهم وقر وفى عيونهم عمى". [النذير – أول المحرم – ١٣٥٧ هـ] وبعدها بأسابيع كتب حسن البنا مؤكداً تعاليم أبيه وقائلاً "وما كانت القوة إلا كالدواء المر الذى تُحمل عليه الإنسانية العابثة المتهالكة حملاً ليرد جماحها ويكسر جبروتها وطغيانها،

وهكذا كانت نظرية السيف فى الإسلام، ولم يكن السيف فى يد المسلم إلا كالمشرط فى يد الجراح لحسم الداء الاجتماعى" [النذير - رمضان - ١٣٥٧هـ] واستجاب الاخوان عبر منظومة سرية أقامها حسن البنا وأسميت "النظام الخاص" وتولى مسئوليته محمود عبد الحليم ثم أسلمه الى عبد الرحمن السندى وقد أستند هذا الجهاز الى أفكار غاية فى التطرف مستمدة من فكر البنا ووالده. ولأننا سنتكلم فى موضوع شائك فإننا لن نورد حرفاً إلا منسوباً لواحد من قادة الجماعة. ونبدأ بكتاب للأستاذ محمد الصباغ وهو واحد من مؤسسى النظام الخاص. وما يلفت النظر هو أن الذى كتب مقدمة الكتاب الأستاذ مصطفى مشهور وهو ايضاً أحد مؤسسى الجهاز السرى وقد كتب هذه المقدمة وهو مرشد عام للجماعة وهذا له مغزاه. ونقرأ لمحمود الصباغ "يبدأ عضو الجهاز الخاص بالبيعة، يدخل غرفة مظلمة ويجلس على بساط فى مواجهة أخ فى الإسلام مغطى جسده تماماً برداء البيض ثم يخرج من جانبه مسدساً ويطلب من المبايع أن يتحسسه وأن يتحسس المصحف الشريف ثم يقول له فإن أنت خنت العهد أو أفشيت السر، فسوف يؤدى ذلك إلى إخلاء سبيل الجماعة منك [أى قتلك] ويكون مأواك جهنم وبئس المصير" [محمود الصباغ - حقيقة التنظيم الخاص - ودوره فى جماعة الإخوان - صـ١٣٢] ويمضى محمود الصباغ ليعطى لنفسه وأعضاء جهازه الحق فى القتل المباشر دون إذن من أحد فيقول "إن أعضاء الجهاز يمتلكون

الحق فى اغتيال من يشاءون من خصومهمالسياسيين فكلهم قارئ لسنة رسول الله فى إباحة اغتيال أعداء الله" ونتأمل فالأخ يزعم أن الرسول أباح اغتيال مخالفيه وهو عكس الحقيقة وهو يعتبر أن أعداء "الدعوة الاخوانية" أعداءً للإسلام. بل أن الصباغ يقول "إن قتل أعداء الله [أى خصوم الجماعة بمنطقه هو] غيله هو من شرائع الإسلام، ومن خدع الحرب فيها أن يسب المجاهد المسلمين وأن يضلل العدو بالكلام حتى يتمكن منه فيقتله" [صـ١٣٨] وفى إطار الحديث عن الجهاز السرى هناك وثيقة هامة تحدث عنها المستشار عصام حسونة الذى كان وكيل النيابة المحقق فى قضية سيارة الجيب وهى القضية التى قبض فيها على قيادات الجهاز الخاص فى عام ١٩٤٨ وهى لائحة الجهاز السرى وفيها تعليمات من قيادة الجهاز للأعضاء مؤكدة "إن كل من يحاول مناوأة أيمنهم أو الوقوف فى سبيلهم مهدر دمه، وأن قاتله مثاب على فعله، وإن من سياستنا أن الإسلام يتجاوز عن قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة" [عصام حسونة - ٢٣ يوليو وعيد الناصر - صـ٤٦] وقيادة الجهاز السرى كانت تضم عبد الرحمن السندى - محمود الصباغ - أحمد زكى حسن - أحمد محمد حسنين ومعهم خمسة من أكبر قادة الجماعة وهم صالح عشماوى و د.محمد خميس حميدة والشيخ محمد فرغلى ود.عبد العزيز كامل ود.محمود عساف وفوق هؤلاء جميعاً حسن البنا المرشد العام. ولعل من حق الجميع أن يعرفوا موقف الإخوان وخاصة قيادتها الأعلى من جرائم

القتل التى أرهبت بها الجماعة خصومها وكل الشعب المصرى - ونعود إلى كل من محمود عبد الحليم المؤرخ الرسمى للجماعة ومحمود الصباغ المؤرخ المعتمد للجهاز السرى فى روايتهما لقصة اغتيال المستشار أحمد الخازندار والروايتان متطابقتان فعندما قتل المستشار أحمد الخازندار - غضب فضيلة المرشد العام غضباً شديداً واستنكر الحادث علناً. والسبب أن فضيلة المرشد لم يستأذن قبل قرار الاغتيال خاصة وأن أحد المتهمين بالقتل كان سكرتيره الخاص، ولهذا تقرر تقديم السندى لمحاكمة داخلية فى إطار الجماعة.. ونقرأ "تشكلت المحكمة الاخوانية من فضيلة المرشد الأستاذ حسن البنا وصالح عشماوى والشيخ محمد فرغلى والدكتور خميس حميدة والدكتور عبد العزيز كامل ومحمود الصباغ ومصطفى مشهور وأحمد زكى حسن حسنين ود. محمود عساف أى أكبر قادة الجماعة وأكبر قادة الجهاز الخاص وقال عبد الرحمن السندى أنه تصور أن عملية القتل سوف ترضى فضيلة المرشد لأنه سمعة يقول أن هذا القاضى يستحق القتل بعد أن سمع الحكم الذى أصدره على عدد من الإخوان، ولأن فضيلة المرشد يعلم عن السندى الصدق فقد أجهش فى البكاء ألماً لهذا الحادث الأليم [الصباغ - المرجع السابق - صـ٢٦٥] وبعد ذلك صدر الحكم وفيما يلى نصه "تحقق الإخوان من أن الأخ عبد الرحمن السندى قد وقع فى فهم خاطئ وفى ممارسة غير مسبوقة من أعمال الإخوان، ورأوا أن يعتبر الحادث قتل خطأ، حيث لم يقصد عبد

الرحمن ولا أحد من إخوانه سفك نفس بغير نفس وإنما قصدوا قتل روح التبلد فى بعض أفراد الطبقة المثقفة من شعب مصر أمثال الخازندار. ولما كان هؤلاء الإخوان قد ارتكبوا هذا الخطأ فى ظل انتمائهم إلى الإخوان المسلمين وبسببه إذلولا هذا الانتماء لما اجتمعوا على الإطلاق ليفكروا فى مثل هذا العمل أو غيره، فقد حق على الجماعة دفع الدية التى شرعها الإسلام كعقوبة على القتل الخطأ من ناحية، وأن تعمل الهيئة كجماعة على إنقاذ حياة المتهمين البريئين من حبل المشنقة بكل ما أوتيت من قوة، فدماء الإخوان ليست هدراً يمكن أن يفرطفيها الإخوان فى غير فريضة واجبة يفرضها الإسلام. ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين جزءاً من الشعب وكانت الحكومة قد دفعت لأسرته من مال الشعب عشرة آلاف جنية، فإن من الحق أن نقرر أن الديه قد دفعتها الدولة عن الجماعة، وبقى على الجماعة إنقاذ الضحيتين محمود زينهم وحسن عبد الحافظ" ولقد تعمدت أن أورد نص قرار اللجنة وهو بالقطع قرار هزلى ويعبر عن رضاء الجماعة على مبدأ القتل. أما القائلين فهما بريئين وضحيين (!).

ولأننا لا نريد أن نطيل فى هذا الأمر فهو واضح تماماً فإننا نكتفى بهذا المثال وإن كان من واجبنا أن نقرر أنه ما أن تصارع أعضاء الجهاز السرى مع بعضهم البعض، فإن كلاً منهم سارع للكتابة محاولاً أن يمنح نفسه أكبر قدر من شرف "الفعل الارهابى" وندعوا كل من أراد المزيد والاعترافات بتمجيد القتل دفاعاً عن

الدعوة قراءة هذه الكتب. فقط نريد أن نورد ملاحظة مؤسفة وهى أن الأستاذ البنا وبرغم كل ما سبق من محاكمة للسندى والحكم المشار إليه قال فى معرض الدفاع عن الجماعة فى كتابه الأخير "قول فصل" أن تهمة قتل الخازندار ألصقت ظلماً بالإخوان لمجرد أن أحد المتهمين كان سكرتيراً له [حسن البنا - قول فصل]. أما كتابات الإخوان التى تمجد الإرهاب فهى:

- محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل - ثلاث مجلدات.

- أحمد عادل كمال - النقط فوق الحروف

- الإخوان والنظام الخاص.

- صلاح شادى - حصاد العمر.

- الشهيدان حسن البنا وسيد قطب.

- محمود الصباغ - حقيقة النظام الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين.

- عبد المنعم عبد الرؤوف - أرغمت فاروق على التنازل عن العرش.

وفيها ما يكتفى ويزيد عن تمجيد الإرهاب المتأسلم ووقائعه.